الزهد رهبنة أم معنوية؟

بقلم الشيخ مرتضى المطهري

ترجمة الشيخ محمد هادي اليوسفي الغروي ـ قم

ومن فلسفة الزهد : ايجاد المعنوية في روح هذه الحياة المادية ، ومن الواضح انا لا نقصد هنا الماديين في هذه الحياة ، فان من البديهي أن الزهد عن الدنيا وثرواتها وجمالها ، والاعراض عن عبادة أموالها ، وترك التقيد بلذائذها ، لا يجد لنفسه عند اصحاب النظرية المادية أي معنى قط . انما الحديث هنا مع من يرى لهذه الحياة المادية شيئاً من المعاني ايضاً ، فنقول :

ان من الواضح البديهي لدى هؤلاء أن الانسان ما لم يتحرر عن قيود المادة واغلالها ، وما لم يحترز عن اغوائها وأهوائها ، وما لم يفطم طبيعته عن البانها ، وأخيراً ما لم يكن يحسن جعل الدنيا وسيلة لا غاية . . لا يتهيأ صعيد قلبه لتلقي الفيوضات الالهية والالهامات الربانية والاحساس المقدس ، والشعور الطاهر والفكر النير ، وأخيراً العقل السليم الى جانب العاطفة الرحيمة .

ومن الواضح ايضاً : أن عبادة الحق والحقيقة ، بكل ما لهما من المعاني الواقعية والتلذذ في طاعتهما ، وذكر الله الحق المطلق في كل حال والانس بالخالق و لطفه عند خدمة المخلوق ، تتنافى وعبادة النفس والنفيس ، والتقيد باللذة ، والوقوع في اسارة المادة وزخرفها وزبرجها .

www.noormags.com

بل وفوق هذا نقول : ليست عبادة الله هي التي تستلزم نوعاً من الزهد في الدنيا فقط ، بل ان الالتزام والغرام بأي عبادة أو ريادة ، في دين أو مذهب ، أو فكرة أو مبدأ أو قومية او وطنية . . تستلزم نوعاً من الزهد والاعراض عن الشؤون المادية حتى في المذاهب المادية ايضاً .

الآن الفرق بين العلوم والفلسفات والتعشق للخيال وبين الصحيح من العبادات ان العبادة .. بما ان مقرها في الفكر او القلب لاتقبل الضرة او الرقيب فلامانع من ان يتعبد الفيلسوف في فلسفته بدراهم المادة ثم لايدير افكاره الا حيثما دارت الدراهم والدنانير مثلا ، ولكن لامجال في فكر هذا الفيلسوف او قلب هذا العالم للتعبد والالتزام بتضحية من تلك التضحيات الانسانية ، او المبدئية او المذهبية بل و حتى القومية ، والوطنية ، فضلا عن محبة الخالق في خدمة المخلوق .

اذن فتفريغ القلب عن التقلب بالمادة العمياء ، واخلاؤه عن اصناف الذهب والفضة الغراء ، شرط لازم للرشد المعنوي في الانسان ..

وقد صرحت الروايات والاحاديث الاسلامية ، بهذه الفلسفة للزهد ، وان الانسان لا يستطيع ان يجمع في قلبه لنفسه دنياً وآخرة يعبدهما معاً : (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه) (١) .

وفي هذا يقول امير المؤمنين علي بن ابي طالب (ع) : (ان الدنيا والاخرة : عدوان متفاوتان ، وسبيلان مختلفان، فمن أحب الدنيا وتولاها أبغض الاخرة وعاداها. وهما : بمنزلة المشرق والمغرب وماش بينهما ، كلما قرب من واحد ، بعد من الاخر : وهما بعد ضرتان) (٢) .

بل يترقى الامام الصادق (ع) اكثر من هذا فيقول : (وكل قلب فيه شك أو شرك فهو ساقط ، وانما أرادوا الزهد لتفرغ قلوبهم للاخرة . .) (٣) . ان الامام

(١) الاحزاب ـ ٥.

(٢) ١٠١ حكم الامام ج ٣ ص ١٥٩ نهج البلاغة ش محمد عبده .

(٣) عن رواية عنه في بحار الانوار ط كمپاني المجلد ١٦ الجزء ٢ ص ٨٤ .

www.noormags.com

الصادق (ع) ـ كما نراه في هذه الرواية ـ يعد جميع أنواع عبادة الهوى واللذائذ: شكاً بالله ، أو شركاً مع الله تعالى ، ويقول : ان الزهاد فى الدنيا انما أرادوا الزهد فيه للرغبة في الاخرة ، ولتفرغ قلوبهم من كل أمل سوى الله تعالى .

ولذلك نرى علياً (ع) حينما يسأل عن ازاره الخلق المرقوع يقول : (يخشع له القلب ، وتذل به النفس ، ويقتدي به المؤمنون) (١) ويقصد بذلك أن المؤمنين الذين لا يجدون لانفسهم ازاراً احسن من هذا الازار الخلق المرقـوع ! سوف لا يجدون فيه فورة حقد على المجتمع، أو شعوراً بعقدة الحقارة في النفس اذ يجدون امامهم قد اكتفى من دنياه بطمريه هذين البالين، ثم لم يعد لبالي ثوبيه طمراً جديداً لعيد أو غيرعيد ، فهو اذ يقول (**ليس العيد لمن لبس الجديد**) لم يلبس الجديد اذ دخل العيد ، بل قال وهو يخاف الوعيد .

ولذلك ايضاً نراه يقول في نهاية كتابه الى عامله على البصرة (عثمان بن حنيف الانصاري) : (. . وأيم الله يميناً استثني فيها بمشيئة الله ـ لاروضن نفسي رياضة تهش معها الى القرص اذا قدرت عليه مطعوماً ، وتقنع بالملح مأدومـاً ، ولادعن مقلتي كعين ماء نضب معينها مستفرغة دموعها ، أتمتلىء السائمة من رعيها فتبرك وتشبـع الربيضة من عشبها فتربض ، ويأكل علي من زاده فيهجع ؟ ! قرت اذاً عينـه ! اذا اقتدى بعد السنين المتطاولة بالبهيمة الهاملة والسائمة المرعية) .

ثم يقول : «طوبى لنفس أدت الى ربهـا فرضها ، وعركت بجنبها بؤسها ، وهجرت في الليل غمضها ، حتى اذا غلب الكرى عليها افترشت ارضها وتوسدت كفها ، في معشر أسهر عيونهم خوف معادهم ، وتجافت عن مضاجعهم جنوبهم ، وهمهمت بذكر ربهم شفاههم ، وتقشعت بطول استغفارهم ذنوبهم ، اولئك حزب الله ألا ان حزب الله هم المفلحون» (٢) .

قسمنا ـ كما سبق ـ هذا المقطع من كتاب الامام (ع) الى هذين القسمين ،

---

(١) الحكمة ١٠٠ من حكم الامام ج ٣ ص ١٥٩ نهج البلاغة ش محمد عبده .

(٢) نهج البلاغه ج ٣ ص ٧٥ ش محمد عبده .

www.noormags.com

فان الجمع بين هذين القسمين معاً يوضح لنا العلاقة بين الزهد والمعنوية بكل وضوح.

وخلاصة هذين القسمين من الكتاب : ان لا بد للانسان المسلم ان يختار أحد هذين الطريقين : اما الدنيا واما الاخـرة ، اما الشهوة : الاكل والشرب والغـرام والمنام ، كالانعام ، واما الانسانية الالهية ، والنور الرباني ، الذي يخص القـلوب والارواح النيرة الطاهرة .

ومن هنا يعرف الفيلسوف (ابو علي الحسين بن علي بن سينا) : الزهـد ، في النمط التاسع من انماط كتاب (الاشارات) في (مقامات العارفين) فيقول : (الزهـد عند غير العارف معاملة ما كان يشترى بمتاع الدنيا الاخرة . والزهد عند العارف : تنزه عما يشغل سره عن الحق ، وتكبر على كل شيء غير الحق) ، وبعبارة اخرى الزهد عند غير الواعين : ترك التلذذ بنعيم الدنيا من اجل التنعم بها في الاخـرة ، ولكنه عند الواعين : استصغار الاشتغال بما سوى الله تعالى لانهم يكرمون ضمائرهم فلا يريدون أن تشتغل بغير الحق المطلق سبحانه .

الزهد والرهبنة :

وهنا يتجه سؤال يطرح نفسه وهو : انا نعلم أن الاسلام يحارب الزهد والرهبنة ويعدها بدعة الرهبان كما يقول القرآن (**ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم**) (١) ويقول الرسول (ص) : (لا رهبانية في الاسلام) (٢) .

وحينما اخبر بجماعة من أصحابه انهم تركوا الدنيا وأعرضوا عنها وتوجهوا الى العزلة والعبادة عابهم و قال لهم : أنا بينكم ولست كما تفعلون .

وقد اعلن الرسول بهذه الكلمة : أن الاسلام دين حيوي اجتماعي لارهباني أضف الى أن تعاليم الاسلام في المسائل الاجتماعية والسياسية والاخلاقية كلها مبنية على اساس احترام الحياة الاجتماعية والاقبال عليها لا الاعراض عنها وأضف الى

---

(١) الحديد ـ ٢٧ .

(٢) بحار الانوار ج ١٥ باب ١٤ (النهى عن الرهبانية) .

www.noormags.com

ذلك أن الرهبانية والاعراض عن الحياة تتنافى ووجهة نظر الاسلام العالمي المتفتح على الحياة ، فان الاسلام ليس كبعض الفلسفات الاخرى ينظر الى الحياة بنظرة مقيتة ولا يقسم الحياة ـ كبعض الاديان الارضية الاخرى ـ الى حسن وقبيح ونور وظلمة.

والحقيقة في الجواب أن نقول : ان الزهد الاسلامي شيء والرهبنة شيء آخر فالرهبنة : انقطاع عن الخلائق الى العبادة على اساس التضاد بين عمل الدنيا و عمل الاخرة ، فاما العبادة و رياضة النفس في الدنيا لاستكمال نعيم الاخرة واما الحياة الدنيا للحياة فيها فحسب. ولذا فان الرهبنة تستلزم الانقطاع عن الحياة والمجتمع والمسؤلية أيضاً ! فهذه هي الرهبنة المقيتة .

واما الزهد الاسلامي : فهو وان كان يستلزم اختيار حياة ساذجة غير متكلف فيها ، وعلى اساس الاعراض عن التنعم والتجمل بلذائذ الحياة و كمالياتها الاضافية لكنه علاقة اجتماعية ورابطة حيوية، تنبع من مسؤولية التعهدات الاجتماعية في الاسلام ومن اجل الخروج الصحيح عن عهدة ادائها لوجهها . وليست فلسفة الزهد في الاسلام نفس تلك الفلسفة التي اوجدت الرهبنة في المسيحية المحرفة ، فليس في الاسلام تضاد بين الحياتين ، بل ولا تجزئة بينهما ولا بين العمل لهما ، بل ان الاسلام يرى العلاقة بين هاتين الحياتين علاقة ظاهر الشيء بباطنه ، والشعار بالدثار، والجسد بالروح ، لا وحدة ولا تضاد ، انما الاختلاف في الكيفية وفي الحقيقة : كل ما كان صالحاً لتلك الحياة فهو صالح لهذه الحياة أيضاً ،وكذلك كل ما كان صالحاً ـ واقعياً ـ لهذه الحياة فهو صالح ايضاً لتلك الحياة الاخرى ولذا وجب الترابط بين العمل الصالح في هذه الحياة لتلك الاخرى بالنية ، ولذلك : فلو عمل المرء عملا منطبقاً على المصالح السامية لهذه الحياة ، ولكنه خال من النية الصالحة لتلك الحياة عد هذا العمل دنيوياً ، ولكنه اذا كانت الناحية الانسانية في هذا العمل مثلا منطوية على أهداف أسمى من الدنيا رامية الى الاخرة فذاك العمل عمل أخروي مقرب محبوب راجح اما واجب أو مستحب مندوب اليه . فالزهد الاسلامي كما بينا : تكييف خاص للحياة ينشأ من ادخال معان من المثل والقيم الاخلاقية القيمة في الحياة

www.noormags.com

الاجتماعية للفرد المسلم ، وهو ـ كما يتجلى من النصوص الاسلامية . يستقر في صميم الحياة الاسلامية على أسس ثلاثة :

أ ـ أن الافادة المادية من مواد هذه الحياة والتمتع بنعيمها الفاني ، ليس وحده العامل الوحيد لتأمين سعادة الانسان ، بل لابد ايضاً من امور معنوية اخرى لاتكفي بدونها الحياة لاسعاده فيها أو بعدها .

ب ـ ان مصير سعادة الفرد لاينفك عن مصير أمته ، فان له بحكم انسانيته سلسلة من العلائق العاطفية ، والاحساس بالمسؤولية ، لايستطيع معها أن تكون له راحة وطمأنينة فارغاً عن قلق الاخرين واضطرابهم .

ج ـ أن للروح اصالتها كما للبدن ، ولها الام ولذائذ ، وهي تحتاج ـ كالبدن ـ بل اكثر منه الى الغذاء والدواء والطعام ، والشراب ، والتربية والتهذيب ، والتأييد والتسديد ، وهي لاتستغني عن الجسد وسلامته وقوته وقدرته ، ولكن انغماس الانسان في اللذائذ المادية ، والاقبال على التنعم والتجمل الجسماني ، لايدع مجالا لتقوية الروح ، بل يوجد نوعاً من التضاد بين النعم المادية والروحية .

وليست نسبة الروح الى البدن ـ كما يتصورها البعض ـ نسبة الالم الى النعيم فليس كل ماكان يرتبط بالروح المأ وكلما يرتبط بالبدن نعيماً اذ ان اللذائذ الروحية قد تكون اصفى واعمق وأدوم من لذات البدن ، وان الاقبال الشديد على لذائذ البدن لمما يقلل من الراحة واللذة الواقعية للبشر ولهذا لاترانا نستسيغ التخلي عن اللذات الروحية حينما نواجه الحياة ونريد ان نكسبها رونقاً وصفاء وبهجة وجلالا ونصنع منها جمالا وكمالا .

واذا التفتنا الى هذه الاصول الثلاثة للزهد الاسلامي ، الصحيح ، أتضح لنا كيف ان الاسلام حين ينفي الرهبنة يضع زهده في صميم الحياة وقلب المجتمع .

www.noormags.com

وفي نهج البلاغة : رقم كتابخانه مدرسه فيضيه قم

عرف الزهد في موضعين من (نهج البلاغة) :

الاول : في الخطبة ٧٩ حيث يقول : (**الزهادة : قصر الامل ، والشكر عند النعم والورع عند المحارم**) .

الثاني : في الحكمة ٤٣٩ اذ يقول : (**الزهد بين كلمتين من القرآن :** قال الله سبحانه «**لكيلا تأسوا على مافاتكم ، ولا تفرحو بما آتاكم . .**» ومن لم يأس على الماضي ، ولم يفرح بالاتي فقد أخذ الزهد بطرفيه) اذلم يجعل الدنيا اكبر همه ، بل وسيلة لتقوية دينه .

اذن فلا ينبغي بعدهذا ،ان يلتبس الأمر على اناس بين التحرر من قيود عبودية الذهب والفضة والاعراض عن كل مايقبل التبادل بهما ، والرهبنة وترك المسؤولية والتعهد . بل ان المسؤولية انما تنبع في ظل هكذا زهد اسلامي مسؤول ولا تبقى كلمة فارغة من دون معنى ودعوى غير مصدقة .

كما نرى ان الزهد والمسؤولية قد جمعتا في شخصية الامام أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام ، فقد كان (ع) أول زاهدفي العالم وفي نفس الوقت كان ينطوي في صدره قلب هو الاقوى شعوراً بالمسؤولية من جميع القلوب انه عليه السلام كان يقول :(**ما لعلي ولنعيم يفنى ، ولذة لا تبقى**) ولكنه من ناحية أخرى كان قد يسهر الليل كله لحيف في العدالة مع مظلوم ، ولا يرضى ان ينام مبطاناً (**ولعل بالحجاز او اليمامة من لاطمع له في القرص ولا عهد له بالشبع**) ان علياً (ع) بما انه زاهد ويرى العالم مسؤولية مترابطة أمام الخالق العظيم لذلك كان يشعر بهكذا مسؤولية أمام تعدي حدود الحقوق والواجبات الاجتماعية ولو كان شخصية ثرية متنعمة متنفذة لكان من المحال أن يشعر بمثل هذه العهدة والمسؤولية .

www.noormags.com